مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(رومية ١٠: ١–١٠)

يا إخوةُ إنَّ بغيةَ قلبي وابتهالي إلى اللهِ هما لأجلِ إسرائيلَ لخلاصه* فإنّي أشهدُ لهم أنَّ فيهم غَيرةً للهِ إلاَّ أنَّها ليست عن معرفةٍ* لأنَّهم إذ كانوا يجهلون برَّ الله ويطلبون أن يُقيموا برَّ أنفُسهم لم يخضعوا لبِرّ الله* إنَّما غايةُ الناموسِ هي المسيحُ للبِرِّ لكلِّ مَن يؤمن* فإنَّ موسى يصِفُ البرَّ الذي من الناموس بأنَّ الإنسانَ الذي يعملُ هذه الأشياء سيحيا فيها* أمَّا البِرُّ الذي من الإيمان فهكذا يقولُ فيه لا تقُلْ في قلبكَ مَن يصعَدُ إلى السماءِ. أي ليُنزِلَ المسيح* أو مَن يهبطُ إلى الهاوية. أي ليُصعِدَ المسيحَ من بين الأموات* لكن ماذا يقول. إنَّ الكلمةَ قريبةٌ منك في فمِك وفي قلبِك أي كلمةَ الإيمانِ التي نبشِّرُ نحن بها* لأنَّك إنِ اعترفتَ بفمِكَ بالربِّ يسوعَ وآمنتَ بقلبِك أنَّ الله قد أقامه من بين الأموات

غاية الناموس هي المسيح

في قراءة سطحية للنص المتلو علينا اليوم من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية (١٠: ١–١٠)، قد يبدو لنا أن محور الحديث هو يهود تلك الأيام فقط، الذين كان يجهد الرسول في تبشيرهم ووعظهم، آملاً في ردّهم عن ضلال الاكتفاء بالشريعة وهدايتهم إلى الإيمان. «أيها الإخوة إن بغية قلبي وابتهالي إلى الله هما لأجل إسرائيل لخلاصه». هذا الحصر السطحي للنص بجماعة معينة وزمان معين (اليهود في زمن بولس) يُبين وكأن الكلام لا يعنينا نحن اليوم. هذا النص مثله مثل الكثير من النصوص النبوية والرسولية، والتي هي في صلب كتابنا الإلهي، موجّه لكل إنسان في كل مكان وزمان دون استثناء. فالكتاب الإلهي لا يُقرأ سطحياً.

إذاً مَن يقرأ هذا النص، فاتحاً قلبه للروح القدس الناطق بالأنبياء والرسل، يرى أن موقف الرسول بولس وغيرته هما موقف وغيرة كل مؤمن أحب المسيح حباً كثيراً وأراده لكل مَن هم حوله. أما اليهود المُشار إليهم فيرمزون إلى كل مَن برَّر نفسه بشيء من الأعمال الصالحة، أو حتى بمجرّد عدم «إيذاء» الآخرين، طبعاً بحسب معايير هذا العالم للخير والشر. في سياق النص نرى الرسول مشتعلاً بالصلاة إلى الله من أجل هؤلاء وباذلاً جهده لخلاصهم، بمحبة وصبر، وكذلك بصدق ودون مراوغة ولا محاباة. نراه يبحث لهم عن أي مبرّر مهما كان صغيراً، وكأنه يبحث فيهم عما يمكن أن يُبنى عليه (أشهد أن فيهم غيرة لله)، لكن دون مغالاة في المديح (إلا انها ليست عن معرفة). والـ«معرفة» هنا هي الإيمان بيسوع المسيح والاستنارة بإنجيله. من خبرته الشخصية، يعرف الرسول بولس يقيناً أن الغيرة لله بلا معرفة المسيح لا تُحيي. خبرة الرسول بولس في هذا المجال تشبه خبرة كل مؤمن «كان ضالاً فوُجد».

جهل برّ الله لا يكفي عُذراً، لأن ما يثبّت الجهل ويمنع عن صاحبه نور الله هو الاغتناء بحكمة الذات المنقوصة المشوّهة عن حكمة الله التي فيها وحدها الخلاص. الاغتناء بالذات، إن كان بمعارف أو بمواهب

العدد ٢٠١٢/٢٨

الأحد ٨ تموز

تذكار القديس العظيم

في الشهداء بروكوبيوس

اللحن الرابع

إنجيل السَحَر الخامس

فإنَّك تخلُصُ* لأنَّه بالقلبِ يؤمَن للبرّ وبالفمِ يُعترفُ للخلاص.

الإنجيل

(متى ٨: ٢٨–٣٤؛ ٩:١)

في ذلك الزمان لمَّا أتى يسوعُ إلى كورةِ الجُرجُسيينَ استقبلهُ مجنونانِ خارجانِ من القبورِ شرسانِ جدًّا حتى إنَّه لم يكنْ أحدٌ يقدِرُ أن يجتازَ من تلكَ الطريق* فصاحا قائلَيْنِ ما لنا ولك يا يسوعُ ابنَ الله. أَجِئتَ إلى ههنا قبل الزمانِ لِتُعذِّبنا* وكان بعيداً منهم قطيعُ خنازيرَ كثيرةٍ ترعى* فأخذ الشياطينُ يطلبون إليهِ قائلينَ إنْ كنت تُخرجنا فائْذَنْ لنا أن نذهبَ إلى قطيعِ الخنازير* فقال لهم اذهبوا. فخرجوا وذهبوا إلى قطيعِ الخنازير. فإذا بالقطيعِ كلِّه قد وثبَ عن الجُرفِ إلى البحرِ ومات في المياه* أمَّا الرُّعاةُ فهربوا ومضَوا إلى المدينةِ وأخبروا بكلِّ شيءٍ وبأمرِ المجنونَين* فخرجَتِ المدينةُ كلُّها للقاءِ يسوعَ* ولمَّا رأوهُ طلبوا إليه أن يتحوَّل عن تخومهم* فدخل السفينة واجتازَ وأتى إلى مدينته.

ما أو بقدرة، أو بكلّها معاً، هو بحدّ ذاته لا انكفاء عن الله وحسب بل تمرّد عليه تعالى. وعبارة «يطلبون أن يقيموا برّ أنفسهم» تشير بشكل واضح إلى ذلك التصميم على الاكتفاء بالذات. وتكمّلها عبارة «لم يخضعوا لبرّ الله». وبرّ الله هو الإيمان بالله، الاتكال على حكمة الله والاغتناء بنعمة الله التي هي اصلاً هبة يعطيها الله مجاناً، ولا فضل لنا فيها البتة. إذاً، عندما تتمسك بصلاح أو حكمة تظنّهما نابعين منك، فَأنت تقاوم الروح القدس وتقصي نفسك عنه. حتى ولو كنت، بحسب ما تظن، ملتزماً شرائع الله. ذلك أن شرائع الله ما نزلت إلا لتهيء الإنسان لاقتبال نعمة الإيمان، والإيمان بالله لا يعني مجرّد الاعتراف به. الخليقة كلّها تشهد له منذ وُجدت. الإيمان بالله هو أن تعتنقه، أن تسيّده عليك فتتحرّر به. أضف أن الإيمان هذا لا يلغي الشرائع أو الناموس الإلهي، بل إنه يكمّلها، يظهّرها إلى معناها الحقيقي. إذاً، من تنكر للإيمان كيانياً بالله تنكر لشرائعه تعالى أيضاً، وإن كان يبرّر ذاته بأنه ملتزمها.

هذا الإيمان الكياني صار لنا ممكناً، بأكمل وأبهى معانيه، يوم صار الله إنساناً وأتحدنا به اتحاداً كاملاً. صار الإله إنساناً لكي يصير الإنسان إلهاً، على ما يقول الآباء. هذا ما عنيناه بأن شرائع الله ما نزلت إلا لتهيء الإنسان لاقتبال نعمة الإيمان، وهي المسيح وإنجيله. بيد أنه، وإن قلنا إن نعمة الله هبة مجانية لا فضل لأتعابنا فيها، يبقى صمود المؤمن في وجه أفكار الشك الآتية من محدودية فهمنا البشري، وفي وجه التراخي الآتي من كسلنا أو قلة صبرنا في أوقات الشدّة، وفي وجه مغريات حكمة العالم، يبقى صمود المؤمن رهناً به وحده، والله يعين المجاهد. اقتبال الإيمان والتزام برّ الله هما قرار حرّ، وكذا الجهاد في حفظهما.

الكلمة قريبة منك، في فمك وفي قلبك، أي كلمة الإيمان «التي نكرز بها»، يقول القديس بولس. أي إن نعمة الإيمان هذه التي تُخلّص ليست بعيدة المنال. فالمسيح الحاملها إلينا لم يستدعنا إليه بل هو أتى إلينا. فقط آمن به، اعتنق إنجيله، ومتى أحبطتك صعاب الحياة تذكّر أن يسوع المسيح هو من «تعيّن ابن الله بقوة من جهة روح القداسة، بالقيامة من بين الأموات» (رو ١: ٤)، ومن غلب الموت لا يصعب عليه شيء.

الإيمان والتطوّر

قد يمرّ الحادي عشر من تموز الحالي دون أن يعلم العديد من المؤمنين أنه في هذا اليوم تعيّد كنيستنا المقدّسة لتذكار القديسة أوفيمية. هذه القديسة، بعد رقادها، كان لها الدور الأبرز في تحديد مقرّرات المجمع المسكوني الرابع (٤٥١ م.). هذا المجمع شدّد على أن المسيح، كلمة الله المتجسّد، له طبيعتان إثنتان كاملتان، الطبيعة الإلهيّة والطبيعة الإنسانيّة. حصلت جلسات ونقاشات عديدة خلال المجمع حول طبيعة المسيح وكان هناك فريقان متخاصمان. وضعت في المساء مقرّرات الفريقين في تابوت القديسة أوفيمية وفي الصباح وجدوا نسخة الإيمان القويم عند رأس القديسة ونسخة

تأمل

إن قال أحد لماذا استجاب المسيح لطلب الشياطين وسمح لهم أن يدخلوا في قطيع الخنازير (متى ٨: ٣٢) نجيب قائلين إنه لم يفعل ذلك استجابة لصالحهم لكنه كان يريد من خلال عمله هذا أن يعلّمنا أشياء كثيرة: أولاً كان يريد أن يعلّم هؤلاء المحرَّرين من الطغاة الأشرار عظمة الخراب الناتج عن الشياطين الكائدين للناس. ثانياً حتى يعرف الجميع ان الشياطين لا تتجرأ على الدخول حتى في الخنازير إن لم يسمح لها الرب بذلك. ثالثاً ان الشياطين تستطيع أن تسبب لهؤلاء الناس شروراً أرهب ممّا حدث للخنازير إن لم يصونوا أنفسهم. لأنه من الواضح لكل واحد ان الشياطين تُبغضنا أكثر من الحيوانات غير الناطقة، لذلك الذين لم يرحموا الخنازير بل في لحظة واحدة رموها في الهاوية، كم بالأحرى سيفعلون بالناس أنفسهم الذين تحت سلطتهم فيقودونهم إلى البراري، إن لم تتدخل عناية الله إلى درجة كبيرة وسط هذه الحالة من الطغيان لكي تضع لهم حدًّا وتوقف هجماتهم اللاحقة. من كل هذا نستنتج بوضوح ان كل واحد منّا يتمتّع بعناية الله. وإن لم يستفد

الإيمان الخطأ عند قدميها.

لسنا بصدد سرد حياة هذه القديسة ويمكن للقارئ التعمّق أكثر في التفاصيل بالعودة إلى كتاب السنكسار الذي يحوي قصص القديسين. سوف نحاول التركيز على مسألة الحفاظ على الإيمان والتشبّث به.

تشكّل القديسة أوفيميّة مع غيرها من القديسين كوكبة من الأشخاص الذين اعترفوا بالإيمان وصانوه بعيداً عن كلّ شائبة. ألم يكن باستطاعة قدّيستنا أن تماشي العصر؟ أو لم يكن باستطاعة الشهداء تجنّب الإضطهادات والتعذيبات مقابل مساومة بسيطة في مسألة إيمانيّة؟ الجواب بسيط ونسمعه على لسان القديس مرقس الأفسسي القائل بأنّه لا تجوز أيّة مساومة في ما يتعلّق بالإيمان.

المجتمعات متطوّرة وخلاّقة بطبيعتها. تسعى الشعوب دوماً نحو الأفضل في سعيها إلى ضمان استمراريتها. وإن لم يكن التطوّر في العصور السالفة ينحصر بشبكات تواصل وإنترنت وإختراعات يوميّة تطوّر الحياة اليوميّة، إلاّ أنّه من البديهي أن يشهد كلّ مجتمع التطوّر الذي يناسب أبناءه وزمانه. إذاً في زمن كلّ من القديسين الذين حافظوا على الإيمان، كان هناك نوع من العصرنة، ولكن القداسة أتت بعد أن نبذ هؤلاء الإغراءات الدنيويّة وتشبثوا بالإيمان. كان القدّيسون يكنزون كنوزهم في السماء لا على الأرض.

اليوم، وتحت عنوان التطوّر، بتنا نخسر هويّتنا والإرث الإجتماعي والثقافي الذي ورثناه عن أجدادنا. ليس الهدف الذي نصبو إليه هو التحجّر والوقوف في مرحلة معيّنة من الزمن، ولكن يجدر بالفرد ألاّ ينقطع عن ماضيه، فمَن لا ماضٍ وتاريخ له لا يعرف مستقبلاً. يتحوّل أحدنا اليوم لا عن الدين وحسب بل عن المبادئ الإجتماعيّة والخلقيّة أيضاً في سبيل الربح المادي أو السعادة الآنيّة. أصبح من السهل التهاون في المسائل الإيمانيّة والتراخي في أداء الصلوات الفرديّة والجماعيّة على حدّ سواء بما فيه القداس الإلهي يوم الأحد. أصبحنا نضع الدين في مستوى ثانويّ ونستخدمه لمآرب شخصيّة ونسخّره في مسائل دنيويّة لبلوغ مراكز عمليّة. لم نعد هياكل للروح القدس يرى الناس على وجوهنا صورة السيّد مرتسمة نتيجة حياة تقيّة. أصبحت وجوهنا مرسومة بالمال والسلطة والمجد، ومقياس الجمال أصبح مرتبطاً بكثرة المادة في نظر أتباع هذه الإهتمامات.

في حياة الجماعة يكون للناس أرضٌ أو رمزٌ وطنيّ كالأرزة يشعره بالإنتماء إلى مكان معيّن وجماعة معيّنة. أما في المسيحيّة فيعرف المؤمنون الرب يسوع الذي صُلب من أجلهم. هو الرمز والمثال. إنه حجر الزاوية الذي يلجأون إليه في كلّ لحظة من حياتهم. هو الذي يقوّيهم بمجرّد النظر إليه قائماً من بين الأموات، فيذللون الصعاب ويجتازون الإضطهادات ويثبتون على الإيمان. من ناحية أخرى، تزيّن قصص الشهداء الكنيسة ببطولاتٍ وشهاداتٍ شتّى. يعجب المرء عندما ينظر إلى شجاعة الشهداء الأوائل في الكنيسة وخاصّة شهداء القرن الثاني. هؤلاء لم يعاينوا السيّد بل سمعوا عنه. مجرّد سماع الروايات المتناقلة عن حياة

الكل من عنايته بطريقة متساوية وبالطريقة نفسها فهذا يشكّل أيضاً نوعاً مميّزاً لعنايته الكبيرة لأن عنايته تظهر بقدر يتناسب مع فائدة كل واحد.

وإلى جانب كل ذلك تعلّمنا العجيبة شيئاً آخر. إن الله لا يعتني بالكل بطريقة واحدة مشتركة لكنّه يتطلّع إلى كل واحد على انفراد. هذا الذي يبيّنه لتلاميذه قائلاً: «فحتى شعور رؤوسكم جميعها محصاة» (متى ١٠: ٣٠). ويمكن لنا أن نتأكد من ذلك بصورة أوضح عن طريق هؤلاء الرجال الذين بهم شياطين. فكان يمكن لهم أن يختنقوا لو لم تتدخل إلى درجة كبيرة عناية الله من أجلهم. من أجل ذلك سمح الرب للشياطين أن تدخل في قطيع الخنازير لكي يتعرف سكان تلك القرى إلى قوّته. لأنه حيث كان اسمه معروفاً جداً لم يُظهر قوّته لدرجة كبيرة ولكن حيث لم يكن يعرفه أحد هناك جعل عجائبه تشعّ من أجل جذب الجميع للإعتراف به كإله. هذا ما حصل مع سكان كورة الجرجسيين الذين كانوا في جهل كبير كما يتبيّن من نهاية الرواية حين كان يجب عليهم أن يسجدوا له معجبين بقدرته بينما على العكس نراهم يطردونه «وطلبوا إليه أن يتحوّل عن تخومهم» (متى ٨: ٣٤).

القديس يوحنا الذهبي الفم

السيّد أدّى بهم إلى حالةٍ من السكر والعشق لله. كانوا يتوقون للقيا السيّد غير آبهين لأيّ خوف أرضي. أمّا نحن اليوم وفي ظلّ التطوّر الذي وصلت إليه البشريّة، فقد ازداد اطلاعنا على أمور تقوّي الإيمان. لدينا إلى جانب ما كان في القرن الثاني، سِيَر المعترفين والشهداء. لدينا رفات القديسين التي تلفّ العالم وتفيض الطيب والنِعَم على المؤمنين. إذاً لدينا من المحفزات للعزم والإيمان أكثر بكثير ممّا كان لهؤلاء. المؤسف أنّنا رغم كلّ الإضافات التي حصلنا عليها والعلامات المثبّتة، ما زلنا إلى اليوم نضعف أمام التجارب.

أليس حرياً بنا أن نجاهر بالإيمان القويم في وجه كلّ مَن يحاول المساس به؟ تثور الدنيا ولا تهدأ في وطننا إذا تعرّض أحد لمنطقة لها طابع طائفي. ولكن أبناء هذه المنطقة يجدفون على الله ويكيلون الشتائم على مَن في السماء وعلى الأرض، كلّما اختلفوا عن حقّ أو باطل فيما بينهم. يقول الأب باييسيوس الآثوسي إنّ «التراب لا يخرج أناساً صالحين. التقليد الجيّد أو السيّء هو الذي يستمرّ».

كبشر ننشأ على الصالحات ونسعى للأفضل بطبيعة الأحوال. حريٌّ أن نسعى إلى إعلاء شأن الروحيات وأن نقدّمها على الأرضيّات فنواصل التقليد الجيّد الذي استمرّ في الكنيسة لسنين طوال. بذا تُغني القداسة الحداثة، فنسخّر العصرنة في خدمة مجتمع يحافظ على الإيمان القويم.

من أقوال الآباء

+ قال الأب يوحنا الكولوفي: «أريد من الإنسان أن يأخذ قليلاً من جميع الفضائل. وبالتالي، فإنك عندما تستيقظ كل صباح، ابدأ من جديد في كل فضيلة ووصية وذلك بصبر عظيم وخوف وطول أناة ومحبة لله من كل الجسد والنفس، وبتواضع كبير وصبر على ضيقات القلب والسجن أيضاً، بصلاة كثيرة وشفاعات وتنهد وعفة في اللسان وحفظ للعين، محتملاً الإهانة وغير غضوب، مسالماً وغير مقابل الشر بالشر، غير مراقب لهفوات الآخرين ونقائصهم، وغير معتبر نفسك ذا شأن كونك دون الخليقة كلها، في رفض للماديات والجسديات، في صليب وجهاد، في مسكنة الروح ونسك ونوح وصوم وتوبة، في جهاد في الحروب، في تمييز، في عفة نفس، في هدوء في العمل وشوق إلى عيش المحبة، في سهر الليل، في جوع وعطش وبرد وعري، في أتعاب، قافلاً قبرك كأنك مت منذ الآن، وكأنك تعتقد أن موتك بات وشيكاً في كل ساعة.

+ سأل الأب يوحنا الكولوفي: مَن باع يوسف؟ أجابه أحد الإخوة قائلاً: اخوته. قال له الشيخ: كلا. لقد باعه تواضعه. لأنه كان يقدر أن يقول «إني أخوهم» وأن يعترض. إنما صمت، فباع نفسه بالتواضع، فجعله تواضعه قائداً في مصر.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb